مناسبة المباني للمعاني في العربية

د. مصطفى حبيب شريقن
جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر)

ملخّص:

يتناول هذا المقال خصيصة من خصائص اللغة العربية، تتعلّق بمتخيّر ألفاظها لمعانيها من جهة التّواؤم والتناسب، تناسبٌ يركّز على المفردة وأثرِ الأصوات المكوّنة لها، في تأدية المعنى وضبطه. وهو أمر يعكس فلسفة العرب اللغوية، المبنية على الفطرة والذوق الرفيع.

وتجدر الإشارة إلى أنّ التناسب في الحروف يتحقّق من زوايا متعدّدة: من جهة جرس الحرف في الأذن عموما، أو من باب التركيز في المناسبة، على صفة من صفات الحرف، وأثرِها في المعنى كصفتي الجهر والهمس، أو من جانب مناسبة معنى الحرف المعجمي لمعنى اللفظة المشتملة عليه؛ كدلالة (الغين) على الخفاء والستر، و(الفاء) على الانفصال والانفتاح والظهور، و(الرّاء) على الحركة، و(الميم) على الجمع والضمّ ...وهلمّ جرّا. والأطْرَفَ الألطفُ، والأرقّ الأدقّ في هذا التناسب مناسبة الحركات للمعاني كما سيلاحظ المتأمّل في هذا المقال.

وربّما تسفر البحوث والتأمّلات في هذا المجال الطريف، والمنحى اللطيف، عن قواعد وكليات تخدم علم الدلالة، ونظرية المعنى، والمعجمية العربية، وعلم وظائف الأصوات.

لقد بلغت العربية لغةُ القرآن من الحسن واللطافة شأوًا عظيما؛ انعكس في صفائه لطافةُ الأعراب، ورقّة طباع العرب، وعذوبة ألسنتهم، في حلاوة الاستعارة، وطلاوة العبارة، ونفاسةِ المعاني، وتَلَألُأً في سَجَنْ جَلِها صفاءُ القرائح، ورهافةُ المشاعر، ورفيعُ الأذواقُ، ورجاحةُ العقول وحضورُ البدائه. ولقد حاول أبو الفتح بن جنّي أن يردّ على سائل معترضٍ، أنكر أن يكون لهؤلاء القومِ هذا القدرُ اللطيفُ الدقيقُ من النظر وهم أجفى طباعا، وأيبسُ طينا[1]، وأنْ يُثبتَ له خلافَ زعمِهِ، من خلال خصائص لغة العرب، وتناسب الأصوات فيها، وانسجام ألفاظها ومعانيها، وأبلى أبو الفتح من أجل إجابة السائل، وإجلاء هذا الجانب في لغة العرب، البلاء الحسن، وعلى الخصوص في كتاب الخصائص، كما سنتبيّن قريبا .

ولعلّ من أخصّ الخصائص التي تميّز العربية عن سائر لغات العالم، هو ارتباطُ الأصوات فيها كثيرا بمعاني مبانيها التي يتألّف منها الكلام العربي. وهي ظاهرة ملحوظة في عدّة مستويات: مستوى الكلمة، والبنية، والصيغة، ومستوى الحروف (الأصوات الساكنة)، والحركات (أصوات اللين). وسنكشف عن جزء من هذا عبر هذا المقال.

ولا يزال هذا الموضوع، إلى يومنا هذا، جديرا بالدراسة والبحث، ففيه جدّة وطرافة؛ إذ لم يحظ بعدُ بالنصيب الوافر الشافي، كما يفتقر إلى مزيد من التقعيد والتقنين، وإن كانت أصوله قديمةً؛ إذ تعرّض له الأوائل في عصر مبكّر. أشار إليه الخليل وسيبويه، وابن قتيبة، وأُولِعَ به ابن جنّي وتعلّق. وراقَ ابنَ تيمية وابنَ القيّم . ولقي بعض العناية في العصر الحديث على يدي جرجي زيدان والعلايلي والرافعي والعقّاد... غير نها كانت أشبه بالانطباعات والملاحظات منها بالدراسة والاستقصاء والتقعيد. ومن هؤلاء من غالى وبالغ، ومنهم من اقتصد واعتدل. ثم ظهرت مؤخّرا بعضُ المؤلّفات المعاصرة، التي تناولت هذه الظاهرة، وحاولت تطبيقها على نصوص بليغة.

ورائد هذا الاتجاه من الدراسات، بلا منازع، في واقعية واعتدال، الخليلُ بن أحمد الفراهيدي (175ه)؛ فقد طعم أصوات العربية وذاقها حرفا حرفا، وخبَر تراكيب ألفاظها، ووقعَها في الأسماع، وصاغ من بعضها كليات شبيهة بالقواعد، فتأمّل قوله: "كأنّهم توهّموا في صوت الجندب استطالةً ومدّا فقالوا: صرّ. وتوهّموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا: صرصر".[2] وكحكمه على الألفاظ: كلّ لفظة رباعية فما فوق خلت من أحد حروف الذلاقة فاحكم بعدم عربيتها (أي أنّها أجنبية الأصل) ماعدا: الدعشوقة، الزهزقة، العسجد، العسطوس، القداحس، القسطوس، الهدعة.[3]

وهذه المكانة التي تبوّأتها حروف الذلاقة بين حروف العربية، ترجع إلى أنّ ثلاثة منها مخرجها من طرف أسلة اللسان وذولقه، والثلاثة الأخرى من عمل الشفتين، وهي أكثر الحروف دورانا في العربية، يمذل بها طرف اللسان، وتتحرك لها الشفتان قال تعالى(ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين) وذلك لأنّ هذه الحروف كما يقول الخليل: "أخفّ الحروففي المنطق، وأكثرها في الكلام، وأحسنها في البناء، ولا يحسن بناء الرباعي المنبسط ولا الخماسي التّام إلاّ بمخالطة بعضها."[4]

ومانفكّ الخليل يتتبع ويستقصي جوانب هذه القاعدة، ليعلّل سبب ارتضاء وقبول هذه المستثنيات من الألفاظ في العربية الأصيلة، مع خلوها من حروف الذلاقة.، فيقول عن هذه الكلمات المستثناة: " لولا ما لزمهنّ من العين والقاف، ما حسُنّ على حال. ولكن العين والقاف لا تدخلان في بناء إلاّ حسّنتاه؛ لأنّهما أطلق الحروف، وأضخمهما جرسا، لنصاعتهما. والدال: لانت عن صلابة الطاء، وارتفعت عن خفوت التاء فحسُنَت".

وكذلك (السين) لخفّتها وهشاشتها؛ ولأنّ السين والدال تتصفان بالتوسّط والاعتدال.[5]

ويرى سيبويه مناسبة بين بعض الأوزان ودلالات ألفاظها فيقول عن المصادر التي جاءت على وزن (فَعَلان): " إنّها تأتي للاضطراب والحركة؛ نحو النقَزان، والغليان، والغثيان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال."[6] ونسج ابن جنّي على سمت ومنوال سيبويه ؛ فقال عن المصادر الرباعية المضعّفة إنّها تأتي لتكرير الفعل وتضعيفه؛ نحو الزعزعة، والقلقلة، والصلصلة، والقعقعة، والجرجرة، والقرقرة. وكذلك المصادر والصفات التي توالت في بنائها الحركات على وزن (فَعَلَى)، تأتي للسرعة والتّتابع لتوالي الحركات فيها، كالبَشَكَى، والجمزى، والولقى، والحَيَدَى.[7].

ولعلّ أبا الفتح استلهم من أحكام الخليل السابقةما جعله يستنتج هو الآخر أحكاما لغويّة شبيهة بما أورده الخليل، فنراه يحكم على الكلمةالمشتملة على حرف الفاء حين يجاورها صنف من الأصوات، وهي هنا الأصوات النطعية والذلقية، أنّ معناها لايكاد يخرج في الغالب، عن دلالات بعينها فيقول: " ازدحامالدال، والتاء، والطاء، والراء، واللّام، والنون، إذا مازجتهن الفاء على التقديم والتّأخير، فأكثر أحوالها، ومجموع معانيها أنّها للوهن والضعف ونحوهما؛ من ذلك (الدالف) للشيخ الضعيف، والشيء التّالف، والطليف (والظليف) المجَّان، وليست له عصمة الثمين، والطنف لما أشرف خارجا عن البناء، وهو إلى الضعف؛ لأنّه ليست له قوّة الراكب الأساس والأصل، والنطَف: العيب ...، والدنِف: المريض"[8].

ويمعن أبوالفتح في التمثيل لهذا الباب فيَذْكُرُ التنوفة؛ لأنّها مظنّة الهلاك، والتُّرْفة؛ لأنّها إلى اللّين والضعف، والطرَف؛ لأنّ طرف الشيء أضعف من قلبه وأوسطه، قال تعالى: ﴿**أولم يروا أنّا نأتي الأرضَ ننقصها من أطرافها(42)**﴾ وقال الطائي الكبير:

كانت هي الوسطَ الممنوعَ فاستلبتْ * ما حولها الخيلُ حتّى أصبحتْ طرفا**

قلتُ: والطرفاء، لعلّها من هذا الوادي، فهي من أشجارالأودية والسبخات. والمنفرِد، والفارِط؛ لأنّه سابق منفردٌ، وهو أعرض للهلاك من غيره. والفُرات؛ لأنّه إذا عذُب الشيء مِيلَ عليه، ونيلَ منه.

والفتور للضعف، والرَّفْت للكَسْر، والطِّفل للصبيّ الضعيف، والطَّفْل للرَّخْص وهو ضد الشَّثْن. والتفَل للريح المكروهة المنبوذة. والدفلى ينبغي أن تكون منه لضعف عُودِها عن صلابة النبع والسّراءِ، وهي من شجيرات الأودية

والعيون. والدَّفَرُ للنَّتْن، ومنه قالوا للدنيا: أمّ دَفْر. والفلتة لضعف الرأي. والفَطْر الشقّ؛ حيث يُلْحَظُ في أبنية هذه المواد التي أساس تركيبها حرف الفاء حين تمتزج بأحد الحروف النطعية، والذولقية، يُلحَظ شيءٌ من الضعف والوهن وما يستكره، أوالإشراف على الهلاك، ونحوه.

كما لاحظ أحمد بن فارس(395ه) المعاصرلابن جنّي(392ه) تناسبا بين بعض الألفاظ ومعانيها، وهو المولع بمفردات العربية؛ تأمّلا وتأليفا، فمن تصانيفه: مقاييس اللغة، والمجمل في اللغة، والأفراد، والإتباع والمزاوجة، والصاحبي في فقه اللغة، تمام فصيح الكلام، ومتخيّر الألفاظ، وذخائر الكلمات، وكلُّها تتناول ألفاظ العربية ومعانيها. وعلى سبيل الذكر والتمثيل لمناسبة الألفاظ للمعاني، ما وقفتُ عليه في معجم المقاييس في مادّة: (د. ل .؟) الدّال واللّام وما يثلّثهما؛ فتدبّر قوله وتمعّن فيه: "إنّ لله تعالى في كلّ شيء سرّا ولطيفة.

وقد تأمّلتَ في هذا الباب من أوّله إلى آخره فلا ترى الدّال مؤتلفة مع اللام بحرف ثالث إلاّ وهي تدلّ على حركة ومجيء، وذهاب وزوال من مكان إلى مكان، والله أعلم."[9]

فعُد إنْ شئت إلى معاني الكلمات الآتية، لتقف على صدق ما ذهب إليه ابن فارس: فـ (دلى) يدلّ على مقاربة الشيء ومداناته بسهولة ورفق؛ يقال: أدليت الدلو، إذا أرسلتها في البئر، فإذا نزعتَ فقد دلوتَ والدلو أيضا ضرب من السير سهلٌ. و(دلث) اندفع وانصبّ، وكذلك دلث الشيخُ، مثل: دلف. و(دلج) تدلّ على سير، ومجيء وذهاب، ولعلّ أكثر ما يكون ذلك في خفية، ويقال للقنفذ المدلج، وأبو المدلج، والدولَج: السّرَبُ، والكناس، لأنّه يستخفى فيهما. و(دلح) تدلّ على مشْيِ المُثْقَل، تقول: دلح البعير بحمله، وسحابة دالحة ودَلُوح، إذا كانت مثقلة بمائها. و(دلص) دليص: كلّ أملس برّاق، تقول: اندلص الشيء من يدي إذا سقط، أي انملص على سبيل الإبدال بين الميم والدال؛ يقال أملصت المرأة، إذا أسقطت. و(دلظ) دفع، دلظه دفعه، يقال: أقبل الجيش يتدَلّظى، إذا دفع بعضه بعضا. و(دلع) دلع لسانَه أخرجه. و(دلف) يدلّ على تقدّم في رفق. فالدليف: المشي الرُّوَيْد، وهو فوق الدبيب.

و(دلق) يدلّ على خروج الشيء وتقدّمه؛ يقال اندلق السيف من غمده، إذا خرج من غير أن يسلّ، واندلقت أقتاب بطنه، إذا خرجت أمعاؤه. و(دلك) يدلّ على زوال شيء عن شيء، ولا يكون إلاّ برفق؛ تقول دلكت الشمس، مالت وزالت نحو الغروب (أي من الزوال إلى الغروب). ومن الباب دلَكَ الشيءَ يدلكه، بحيث ترى اليدَ فيه لا تكاد تستقرّ على مكان دون مكان. و(دَلَهَ) تدلّ على ذهاب الشيء؛ دَلَه الرجلُ، ذهب عقلُه. ودَلَه عقلَه الحبُّ، أذهبه. والملاحظ أيضا في هذه المادّة الخروج والخفاء والسهولة واليسر والرفق.

وكان ناصر الدين البيضاوي(691ه) كثيرا ما يركن إلى هذا التناسب ويستأنس به في مواضع شتّى من تفسيره؛ فتدبّر إشارته وهو يفسّر قوله تعالى:

﴿ **ومما رزقناهم ينفقون**﴾"أنفق الشيءَ وأنفده أخوان، ولو استقريت الألفاظ وجدتَ كلّ ما فاؤه نون وعينه فاءٌ دالّاً على معنى الذهاب والخروج"،[10] وكذلك يقول عن: فلح وفلج وفلق وفلذ وفلى، كلها تدلّ على الفتح والشقّ، وذلك لاشتراك هذه الألفاظ في فاء الكلمة وعينها؛ وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿**أولئك هم المفلحون**﴾.[11]

ولاحظ الدكتور صبحي الصالح مثل هذا التناسب عند ابن فارس، في عدّة أصول لغوية؛ كالأصل اللغوي (القاف والطاء وما يثلّثهما) (قطع، قطف، قطل، قطم) التي يردّها ابن فارس إلى معنى القطع. ويُرجع أصل (الفاء والرّاء وما يثلّثهما) إلى معنى التمييز والإفراد والفرز.

ويعود الأصل اللغوي (الجيم والذال وما يثلّثهما) (جذر، وجذع، جذل، جذم) إلى معنى الأصل للأشياء فهي تدلّ على أصول الأشياء على العموم: فـ(الجذر) الأصل، ومنه الجذر في الشجر، والجذر في الحساب. و(الجذع) أصل النخل. و(الجذل) أصل عامّ في الشجر و(الجذم) الجذام قطع أصول الأصابع، قلتُ: وجِذْم الحوض أصله؛ قال زهير:

أثافِيَ سفعا في معرّس مرجل * ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلّم**

وهي مناسبات وفروق بنى عليها ابن فارس معجمه المقاييس. وبناء على هذا حاول الدكتور صبحي الصالح أن يجد مناسبة ما، بين معنى اللفظة والصوت الذي ثلّثها في الأمثلة التي أوردها.[12] مترسّما آثارمن سبقه كالرافعي أو عاصره كمحمد المبارك، اللذين يريان أنّ الحرف الثالث زيد على الأصل الثنائي في مرحلة من مراحل التطوّر التاريخي، فتخصّص به المعنى وتنوّع. ومن الأمثلة التي ضربت شاهدا على صحّة هذا الحكم، الأصل الثنائي (قطّ) التي تدلّ على مطلق القطع، فإذا زيد الحرف الثالث، تخصّص المعنى وتنوّع حيث يصير: قطع، أو قطف، أو قطر، أو قطل، أو قطم. ومثلُه الأصل الثنائي (فلّ) التي تدلّ على الشقّ والفتح عامّة والحرف الثالث يخصّص المعنى؛ فتصبح فل (ق)، أو فلح، أو فلج، أو فلع، أو فلذ، وكذلك الجذر (فر): فرث، فرج، فرد، فرز، فرق، تدلّ على الفرز والفصل. اعتمد بعض المحدثين هذا الرأي؛ فاعتبروا الحرفَ الثالثَ الزائد على الأصل الثنائي، تنويعا وتخصيصا للمعنى.والأغربُ أن يكون التخصيص بالحرف الأوّل مع الإبقاء على الحرفين الثاني والثالث كأصل للمعنى في نحو(رمّ) فتقول: جرم خرم شرم صرم ثرم فرم زرم، فيه معنى القطع والكسر.

مع العلم أنّ هناك من غالى وبالغ في القول بالمناسبة بلا تحفّظ، كعبّاد بن سليمان الصيمريالمعتزلي؛ إذ يزعم أنّ بين اللفظ ومدلوله علاقة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع، وإلاّ لكان تخصيص الاسم المعيَّن بالمسمى المعيّن ترجيحا من غيرمرجِّح.[13]

ومن المحدثين، أيضا، من ذهب هذا المذهب واشتطّ فيه كعبد الله العلايلي والأستاذ ناصر الدنّ الذي روى لمحمّد الأنطاكي[14] أنّ هناك من يزعم أنّ معنى (غرف) مستفاد من مجموع معاني الحروف الثلاثة التي يتألّف منها لفظ (غ ر ف) فـ (الغين) تدل على الخفاء والستر، وهي بداية عملية الغَرْفِ، و(الراء) تدل على الحركة والتكرار، وهي العملية التي تلي عملية غطس الإناء وتحريكه، ثم (الفاء) التي تدلّ على الظهور والوضوح، والمتمثِّل في عملية الغرف في ظهور الإناء أخيرا، . فهذا التناسب في وضعيات عملية الغَرْف مع حروف (غرف) إن كان يصدق على هذا المثال فإنه لا يتحقق مع غيره إلا بتكلف ظاهر، وتعسّف ينبو عنه منطق اللغة وواقعها. هذا وإن كان ابن القيم أشار من قبلُ إلى أنّه يمكن الاهتداء إلى معاني بعض الألفاظ من مجرّد أصواتها كلفظتي(الهواء والحجر) فإنّه لا يعني البتّةَ الذي يعنون؛ لأنّ هؤلاء وعلى رأسهم الأستاذ عبدالله العلايلي يسرفون في تعميم القول؛ إذ يدّعي العلايلي جازما، أنّ لكلّ حرف معنى خاصّا به، إذا عرِف أمْكَنَ معرفة معاني الكلمات العربية ولو لم تكن معروفة عنده من قبل.

كما أنّ مذهب هؤلاء يباين ويزايل ما لاحظه ابن القيّم من جهة كونِه إشارةً إلى المناسبة بين جرس اللفظة ودلالتها؛ بينما هو عند العلايلي إشارة إلى معاني الحروف المؤلّفةِ للفظة العربية، فهما من هذا المنظور، متناسبان مختلفان.

ويذهب الأستاذ محمّد عنبر وهو من المعاصرين إلى تناسب آخر، يتمثّل في تناسبمعاني المفردات مع ترتيب حروفها؛ فإذا عكستَ الترتيبَ انعكس المعنى؛ ويضرب أمثلة على ذلك فتأمّل المناسبة بين (فرص) ومقلوبِها (صرف): الفرصة: النهزة والنوبة السانحة، والأوان سريعا ما يمرّ ويذهب، والصرف ردّ الشيء عن وجهه إلى وجه آخر، والتحويل والتبديل؛ فنهاية الفرصة، إيذان ببداية الانصراف والتحوّل، وأمعن الأستاذ عنبر في تأكيد ذلك فقال: "تخرج الحركة من صاد (فرص) لتبدأ سيرها في صاد (صرف) في لحظة واحدة؛ لأنّ الحرف الذي ينتهي به أحد الزوجين، ويبدأ به الزوج الآخر حرف واحد".[15] وكذلك الحال بين (عقل) و(لقع) فالأوّل تثبيت واستقرار وإحكام (عقل الشيءَ)، والثاني (لقع): فيه لمح وإسراع. وعليه: فما عقلتَ من الكلام هو ما تشبّثتَ به واستقرّ عندك، وما لقع منه، هو ما تفلّت منك وليس عندك منه شيء...[16] (ومثله بين (عدّ) و(دعّ) فـ (عدّ): يتّجه إلى أنّ ما تعدّه تجعله في حسبانك وعلمك، كما يتّجه لفظ "دعّ" إلى ما تدعه، تدفعه وتنبذه. واللفظان متضادّان مبنى ومعنى.[17] وكذلك لفظتا: عشّ وشعّ متضادّتان مبنى ومعنى؛ فالاعتشاش ينزع إلى التجمّع والتراكب، والشّعاع التفرّق والتطاير والتشتّت)؛ وكذلك الأمر في

(عسعس ≠ سعسع)، و(فنن ≠نفف)، و(خدر ≠ردخ) ...[18].وهذا يعني بالتضمّن واللّزوم عند الأستاذ عنبر، أنّ دلالة اللفظة الواحدة هي خلاصة دلالات حروفها، وإن كان قَصَر ذلك في الظاهر على ترتيب الحروف واتجاهها.

وحتّى تزداد القضية وضوحا وتفصيلا لمَا لُوِّح له وأُجْمِلَ، رأيتُ أن أورد طائفة من النماذج القديمة والحديثة التي تبرز جوانب من التناسب بين اللفظ والمعني في العربية، وعلى الخصوص، ما يتعلق بحظوظ الصوائت (الحركات)فيها.

فممّا له صلة حميمة بمناسبة الألفاظ من جهة الجرس الصوتي، للمعاني التي وُضِعت لها، تلك الملاحظة الذكية من عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني (651ه)، عند الحديث عن الفرق بين أداتي النفي: (لا) و (لن)، والتي ألفيناها عند من جاء بعده مع تصرّف في العبارة. كابن قيّم الجوزية (751ه) حين يقول عن هذين الحرفين: "أنّ (لا) مؤلّفة من لامٍ بعدها ألفٌ يمتدّ بها الصوت ما لم يقطعه ضيقُ النفَس، فآذَنَ امتدادُ لفظها بامتداد معناها. و(لن) بعكس ذلك. فتأمّله فإنّه معنى بديعٌ"؛[19] وأخذها عنه الإمام الزركشي(794ه) في البرهان، ونقلها الإمام السيوطي مستغربا، فقال في كتابه همع الهوامع: "إنّ (لن) لنفي ما قرب، ولا يمتدّ معنى النفي فيها... وسرّ ذلك أنّ الألفاظ مشاكِلةٌ للمعاني، و(لا) آخرها ألف، والألف يكون امتداد الصوت بها، بخلاف النون."[20]

وأشار إلى هذا المعنى أبو حيّان من قبل وعلّق عليه، كما أفاد الدكتور فاضل السامرّائي في معاني النحومن هذا التعليل، في التفريق بين المعنيين؛[21] ذلك أنّ كلا الأداتين - بتعبير العصر - يتألف من مقطع متوسّط، غير أنّ الأوّل مقطع مفتوح يمتدّ معه النَفَسُ يناسبه معنى التواصل والامتداد، والثاني مقطع مغلق ينحبس معه النفَسُ وهو مناسب لمعاني الانقطاع والانتهاء. وكان هذا الفارق بين الأداتين بارقة للوقوف وتعيين خصوصية كل آية من الآيتين المتشابهتين ﴿**ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم**﴾ البقرة / 94. ﴿**ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم**﴾ الجمعة / 07، بناء على ارتباط كلّ آية منهما بإحدى الأداتين؛ فالمقام الأوّل بلا مراء يناسبه(لن) وانقطاعُها، والمقام الثاني تناسبه (لا) وامتدادُها.

وهناك مناسبة الحركات للمعاني من جهة الخفّة والثقل، وأثر الحركة في عملية التفخيم والترقيق والإمالة معلومة لا تخفى، ورتوخّي ذلك مطلوب في بعض المواطن لتحقيق معاني الفخامة والجزالة، أوالرقّة واللين؛ فمن المعلوم لدى النحاة واللغويّين أنّ الضمّة أقوى الحركات وأثقلُها، ثمّ تليها الكسرة فالفتحة، وهي أخفّ الحركات؛[22] وهي حقيقة في آليات نطق الصوت؛ إذ تحتاج الضمّة إلى جَهد عضلي أكثرمن أختيها، فمعها ترتفع مؤخّرة اللسان، وتتضمّ الشفتان مع ارتفاع وبروز نحو الأمام وهو وضع لا تحتاجه الكسرة ولا الفتحة. ومن المعلوم أيضا أنّ الأصل في الهاء (ه)، ضمير الغائب المذكّر، أنْ تضمّ، إلاّ إذا سبقتها كسرة أو ياء، فإنّها تكسر عند سائر العرب ما عدا أهل الحجاز، فإنّهم يبقونها مضمومة؛ فيقولون: بهُ، وعليهُ ولديهُ. وقد سجّل القرآن هذه الظاهرة في وجه من وجوه القراءات المتواترة في موضِعَين مشهورين؛ في(عليهُ) في قوله تعالى: ﴿**ومن أوفى بما عاهد عليهُ اللهَ**﴾ الفتح/10. وفي (أنسانيهُ) في قوله تعالى: ﴿**وما أنسانيهُ إلاّ الشيطان أن أذكره**﴾ الكهف/62.. ولمّا كانت الضمّة أقوى الحركات وأفخمَها فالميلُ إليها هنا عِوَض الكسرة في(عليهِ) ليناسب ثقَل العهد، وعظمة العقد، وخطرَ هذه البيعة، والتحذير من نكثها؛ فالضمّة هنا هي التي أكسبت لفظ الجلالة التفخيم بخلاف الكسرة؛ إذ المبايَع هنا هو الله عزّ وجلّ: ﴿ **إنّما يبايعون الله** ﴾ ثمّ اكّدهُ تفخيما ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾، وأغلظ في الوعيد، وشدّد في النّكير، على ناقض العهد المتهاونِ فيه ﴿ **فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه** ﴾ وأجزل الجزاءَ لمَن وفّى بعهده ﴿ **فسيؤتيه أجرا عظيما**﴾ يقول الدكتور فاضل صالح السامرّائي عن هذا التناسب"فهو كما ترى عهد عظيم ثقيل، فناسب أن يأتي بأثقل الحركات، وهي الضمّة، مجانسةً لثِقَل هذا العهد".[23]

وكذلك الضمّ بدل الكسر في (أنسانيهُ) في قوله تعالى: ﴿**وما أنسانيهُ إلاّ الشيطان أن أذكره**﴾ الآية 62 من سورة الكهف، وذلك ليناسب هذا النسيانُ العجابُ المَقامَ، فإنْ كان المشهد عجيبا غريبا فإنّ نسيانَه أعجب وأغرب؛ كيف يُنسَى

موقف عجيب كهذا ﴿**واتّخذ سبيله في البحر عجبا**﴾، ثمّ كيف ينسى الفتى أمرا أُنيط به، وخرج من أجله، ولم يغفل عنه حتّى شاهَدَ الموقف؟ ثمّ لم يُخبرْ صاحبَه بما كلّفه وصاحَبَهُ من أجله؟ وغرابةُ الحدثِ، أَدْعَى للتذكار والإخبار، على قُرْب العهد. ولعلّك تقول: إنّه الدهشة والذهول، ولكن طال الأمروقد فارقا المكان ولم ينتبه موسى عليه السلام هو أيضا أنّ صاحبه لا يحمل الحوت. فمن أيّهما تعجب؟ ولذلك نُسِب النسيانُ إليهما معا ﴿**فنسيا حوتهما**﴾ فعدول هذه القراءة عن الكسر إلى الضمّ تفخيما للموقف، وتنبيها على ما في هذا النسيان من العجب العجاب. وأنّ ندرة وقوع مثل هذا النسيان في مثل هذا المقام، يضاهي ندرة وقوع الضمّ في مثل هذا المحلّ. والله أعلم. فها أنت ترى كيف وُظِّفتْ دلالةُ الحركة في تقوية المعنى وشدّ أزره.

ويذكر ابن جنّي انّ أدلَّ دليل على ذوقهم الحركاتِ، تمييزُهم بين ثقيلهاوخفيفها، فتراهم يسكّنون المضموم والمكسور دون المفتوح لخفّته "فهلْ هذا ونحوُه إلاّ لإنعامهم النّظر، في هذا القدر اليسير المحتقر من الأصوات، فكيف بما فوقه من الحروف التوامّ، بل الكلمة من جملة الكلام".[24] ويؤكّد هذا المعنى في موضع آخر فيقول: "وإن تعذّر ذلك، جنحتَ إلى طريق الاستخفاف والاستثقال؛ فإنّك لا تعدم هناك مذهبا تسلكه، ومأمّاتتورّده. فقد أريتك في ذلك أشياء: أحدها استثقالهم الحركة التي هي أقلُّ من الحرف، حتّى أفضَوا في ذلك إلى أنْ أضعفوها، واختلسوها، ثمّ تجاوزوا ذلك إلى أن انتهكوا حرمتها، فحذفوها، ثمّ ميّلوا بين الحركات فأنـْحَوْا على الضمّة والكسرة لثقلهما، وأجَمُّوا الفتحةَ في غالب الأمر لخفّتها. فهل هذا إلاّ لقوّة نظرهم ولطف استشفافهم وتصفّحهم."[25]فأنت ترى كيف جنح القوم إلى الاستخفاف، وتنكَّبوا سبيل الاستثقال، فآثروا الفتحة على أختيها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، وأوغلوا في ذلك أحيانا، فأضعفوا الحركة واختلسوها، وربّما تجاوزوا هذا الحدَّ فحذفوها، فهل تجد لطافة أرقّ من لطافتهم، وبداهةً أحضر من بداهتهم، وسبيلا أبدع من سلوكهم.

كما يلتفت ابن جنّي إلى وقْع الحروف في الآذانفيقول عن مناسبة أجراس حروف الألفاظ لمعانيها: " فإنّ كثيرا من هذه اللغة وجدته مضَاهَيًا بأجراس حروفه أصواتَ الأفعال التي عُبِّر بها عنها؛ ألا تراهم قالوا قضِم في اليابس، وخضِم في الرطب، وذلك لقوّة القاف وضعف الخاء، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى والصوت الأضعف للفعل الأضعف، وكذلك قالوا: صرّ الجندبُ، فكرّروا الراء لما هناك من استطالة صوتها، وقالوا: صرصرالبازيُّ، فقطّعوه؛ لما هناك من تقطيع صوته. وقالوا (قطّ) الشيء إذا قطعه عرْضا، و(قدّ) الشيء إذا قطعه طولا؛ وذلك لأنّ منقطع الطاء أقصر مدّة من منقطع الدّال".[26] ومن الشواهد، الدّالّة على دقّة استعمالهم لهذين اللفظين، قولهم في وصف مجالدة الإمام عليّ، رضي الله عنه، أعداءه بالسيف، إذا حَمِيَ وطيس المعركة: " كانت ضربات عليٍّ أبكارا، إذا اعْتَلَى قدَّ، وإذا اعترض قَطَّ ."[27]

أمّا ما يتعلّق بدلالة حروف المباني مفردة فباعتبار المعنى الغالب في البناء الذي يشتمل على هذا الحرف؛ كقولهم: حرف الراء يدلّ في الغالب على الحركة، والغين على الخفاء والستر، والفاء بخلاف الغين تدلّ على الظهور والانفتاح، وهذا الملحظ ظاهر في حروف ألفاظ بعينها.

وأنسبُ شاهدٍعلى هذا، فيما نرى، هو توسُّلُ ابن القيم رحمه الله بإيحاء دلالة الحرفلتفسير آية، بعد تحليل اللفظ فيها؛ إذ وقف مليّا عند حرف (الميم) من (اللهمّ) من قوله تعالى: ﴿ **قل اللهمّ مالك الملك** ﴾، فالميم عَلَمٌ على الجمع والضمّ في مثل: أنتم، هم، عليكم، قلتم، إيّاكم؛ وذلك أنّ الميم تدلّ على الاجتماع والضمّ بأصل نطقها، إذ هي حرف شفهي يجمع الناطق به شفتيه ويضمّهما، فأنصِت إليه وهو يقول: "وتأمّل الألفاظ التي فيها الميم، كيف تجد الجمع معقودا بها، مثل: لَـمّ الشيءَ يلمُّه ... ومنه قولهم: دار لـَمُومَة، أي تَلُمّ الناس وتجمعهم . ومنه الأكل اللّـمّ.. يأكل نصيبه ونصيب صاحبه...ومنه بدر (التمّ) إذا كمل واجتمع نوره. ومنه (التّوْأمُ) للولَدَين المجتمعين في بطن. ومنه (الأمّ) وأمّ الشيء أصله الذي تفرّع منه، فهو الجامع له، وبه سمّيت مكةُ أمّ القرى، والفاتحةُ أمّ القرآن، واللوحُ المحفوظ أمّ

الكتاب... والأمّة: الجماعة المتساوية في الخلقة، أو الزمان، أو اللسان ... ومنه الإمام الذي يجتمع المقتدون به على اتباعه. ومنه: أَمّ الشيءَ يؤمّه إذا جمع قصده وهمّه إليه.

ومنه رمّ الشيء يرمّه، إذا أصلحه، وجمع متفرّقه. قيل ومنه سمّي الرمان، لاجتماع حبّه وتضامّه. ومنه ضمّ الشيء يضمّه، إذا جمعه. ومنه همُّ الإنسان، وهمومه، وهي إرادته وعزائمه التي تجتمع في قلبه. ومنه قولهم للأسْوَد: أَحَمُّ، والفحمةِ السوداء: حَمَمَةٌ. وحمّ رأسه إذا اسودّ بعد حلقه كلّه. هذا لأنّ السواد لون جامع للبصر، لا يدعه يتفرّق".[28]

ثمّ يضفي حلّة من المعاني الميمية، يحلّي بها معنى اللفظ (اللهمّ) فيقول: "وإذا علم هذا من شأن الميم، فهُمْ قد ألحقوها في آخر هذا الاسم (اللهمّ) الذي يسأل العبد به ربّه سبحانه في كلّ حاجة، وكلّ حال، إيذانا بجمع أسمائه تعالى وصفاته. فإذا قال السائل: اللهمّ إنّي أسألك، كأنّه قال: أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى بأسمائه وصفاته، فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم، إيذانا بسؤاله تعالى بأسمائه كلّها."[29] وهذا المعنى مأثور عن بعض السلف؛ فهذا الحسن البصري يقول: (اللهمّ) مجمع الدعاء. وكان أبو رجاء العطاردي يقول: إنّ الميم في قوله (اللهمّ) فيها تسعة وتسعون اسما من أسماء الله تعالى، وكذلك قال النضر بن شميل: من قال: (اللهمّ) فقد دعا الله بجميع أسمائه.

ثم يشير أبو الفتح، إلى مناسبة صفة الحرف للمعنى الذي يحمله اللفظ، وقد يلجأ إليه أحيانا للتمييز بين المترادفات؛ فيذكر صفة الجهر وقوّتَه، وأنّه أنسب للمعاني الحسيّة المُشَاهَدة، و ضعفَ الهمس وأنّه أليق بالمعاني المجرّدة التي لا تباشرها الحواسّ؛ وذلك عند التمييز بين المعاني المتقاربة أو المترادفة؛ كلفظتي (مدّ، ومتّ) فيقول: " قالوا: (مدّ الحبل) (ومتّ إليه بقرابة) فجعلوا الدّال ـــ لأنّها مجهورة ـــ لما فيه علاج، وجعلوا التّاء ـــ لأنها مهموسة ـــ لما لا علاج فيه". قلت: ومثلها (مطّ) بالطاء المطبقة المفخّمة، ومن هذه المادّة مشيةُ المُطَيْطاء، وهي التبختر ومدّ اليدين في المشي، والمطْوُ: المدّ في السير. والمطلُ في الدَّين. ثمّ راح ابنُ جنّي يُوازِنُ بين الهمزة والواو؛ ولما كانت الهمزة أقوى من الواو كان لفظها أولى بالتأثير وأبلغ في اللفظين المتشاكلين؛ فخَذَأُ النفوس، أشدّ فُحشًا من خُذْوِ الآذان وهو استرخاؤها؛ إذ العيب الخُلُقي أزرى وأقبح بصاحبه من العيب الخِلْقي.

وهذا المنتجعُ الممتنعُ اقتَحم حماه، فحولٌ من العلماء والمفسّرين، بغية التأصيل له، وهم يحلّلُون عناصر اللغة، ويفسّرون كلام الله؛ مثلما هو الشأن عند الخليل وسيبويه وابن جني، والمُشاهَد لدى البيضاويوابن تيمية وابن القيم رحمهم الله جميعا.

ومن بين ما خاضوا فيه، على وجه التعجيب والاستطراف، مناسبةُ الحركاتِ لمعاني الألفاظ.

فانظر إليهم وقد علّلوا حركاتِ بعض الألفاظ وسكناتِها، بإرجاعها إلى تناسب بين المعاني؛ إمّا إلى تناسبِ تضادّ أو تناسبِ تناظر؛ فتراهم، مثلا، في تعليل الفرق بين وسَط الشيء، بفتح السين، وهو اسم، ووسْط الشيء، بسكون السين، وهو ظرف، يقولون: "وإنّما جاء الوسَط محرّكًا أوسطُه على وزن نقيضه في المعنى وهو الطَّرَف؛ لأنّ نقيض الشيء يُنزَّل منزلةَ نظيره في كثير من الأوزان، نحو: جوعان وشبعان، وطويل وقصير، وقريب وبعيد، وشقيّ وسعيد، والقُرْب والبُعْد والحُبُّ والكُرْه... وممّا جاء على وزن نظيره قولهم: الحَرْد؛ لأنّه على وزن القصْد. والحرَد؛ لأنه على وزن نظيره وهو الغضَب؛ يقال: حرَد يحرِد حَرْدًا، كما يقال: قصَد يقصِد قصْدا، حرِد يحرَد حرَدا، كما يقال: غضِب يغضَب غضَبا "[30]، وكثيرا ما تصادفك في المعاجم: (هذا نظير هذا وزنا ومعنى). وأحيانا تتجانس الحركات في الألفاظ، لتجانس المعاني، وتختلف في أضدادها، لاختلاف المعاني؛ فقاسوا النظير على النظير، والنقيض على النقيض، وقالوا في تعليل الكسر والفتح في اللفظين المتضادين: "الخِصب والجَدب؛ لأنّ وِزانهما: العِلمُ والجَهلُ"[31]؛ نحو ذلك أنّ الخِصْب والعِلْم على وزن واحد مع تناسب في المعنى؛ فكلاهما خير، بَسْط ونِعمة، نماء وحياة، وضدّهما: الجَدْب والجَهْل على ميزان واحد؛ وكلاهما شرّ، قبض ونقمة، محق وهلاك. وامّا المعاني الصرفية، فأساس بنائها الحركات والسكون، وبها تتمايز

عن بعضها. وبالحركات فرّقوا بين صور المعنى الواحد؛ مثل: الذُّكْر بضمّ الذال، هو ما كان في القلب، والذِّكر بكسر الذال هو ما كان باللسان. وقيل هما بمعنى واحد. والكِمُّ بالكسر: وعاء الطلع والزهر، والكَمّ بالفتح: للعدد، والكُمّ بالضمّ: للقميص.

للحركات دلالات إعرابية، وصرفية وبنائية، ومعجمية؛ فالضمّة عَلَم الإسناد الذي هو عمدة الجُمل، ودعامة الكلام، وهي أثقل الحركات وأقواها وأضيقها، تدلّ على التمكّن والدّوام. والكسرة علَم الإضافة، وبها يتخلّص من التقاء الساكنين، وهي تدلّ على التواضع واللين، فهي المنخفضة، وعلى الرّقة وإظهار الضعف، فهي رمز التأنيث في جمع المؤنّث السّالم المنصوب، وفي الضمائر: أنتِ، تِ، كِ، هِي. والفتحة علم الفضلة وهي أوسع الحركات وأكثرها دورانا على الألسنة لخفّتها. حيث يَنْصِبُ الفعلُ عشرة أشياء، بينما يرفع الفعلُ فاعلا واحدا.

حقًّا إنّ العبقرية العربية تتجلّى في خصائص لغتهم على العموم، ولا جرم أنّه سيتجلّى لنا جانب من فلسفة العربيّ وعبقريّته بالتأمّل في توزيع الحركات الثلاث التي تعتورُ الأصل الثلاثي؛ يذكر الأستاذ أحمد الأخضر غزال أنّهم إنّما فَتَحُوا العينَ في (فعَلَ)؛ " لأنّ الفتحة تدلّ على العمل الصادر من الفاعل بإرادة منه حقيقة أو مجازا"،[32] مثل: ضرب، وأكل، ودفع، وقفز... إلخ.

فهو للتّأثير في الأشياء، وعلى العكس مكسورُ العين (فعِلَ) فهو لتأثّر الفاعل بما يلحقه ويحصل له، "فالفعل المكسور العين يدلّ على كلّ ما يحصل للفاعل بدون إرادة منه حقيقة أو مجازا، مثل: (مرِض، حزِن، عطِش، علِم، فرِح، سقِم، غرِق...إلخ)"[33]. أمّا مضمومُ العين (فعُل) فيدلّ على المعاني المناسبة لمعنى الضمّ والجمع والرّمّ والطمّ والتمّ والثبات؛ "وكلها بمعنى حصول الشيء للفاعل حصولا طارئا أو مؤقّتا... بل بكثرة ودوام وثبات"[34].

كما تدلّ حركة ضمّ العين في الفعل الثلاثي من باب (كرُم) أصلا أو تحويلا، الدلالةَ على المعنيين الآتيين:

- الدلالة على لزوم الفعل لفاعله فلا يتعدّاه إلى المفعول به البتّة إلاّ على ضرب من التوسّع في الحمل على المرادف، نحو: رحُبَتك الدار: منصوب بنزع الخافض؛ إذ الأصل: رحُبَت بك الدار أو هو منصوب على الحمل على مرادف الفعل أي وسِعَتْك الدارُ.

- والدلالة على التعجّب؛ إذ معنى (فعُل): (ما أفعله). ويرى ابن جنّي أنّ فعل التعجّب من (فعُل) بعد النقل والتحويل من باب (فعَل) و(فعِل) ليدلّ على التمكّن والثبات، فنحو: ما أَشْعَرَهُ، وما أقتَلَه، وما أكفَرَهُ، في التعجّب، هي عند ابن جنّي من الأفعال: شعُر، وقتُل، وكفُر تقديرا؛ وإنّما يقال ذلك لمن تكرّر الفعل منه حتّى صار كالطبيعة والنحيزة والغريزة التي تَغلِب ولا تُغلَبُ، وتُلَازِم ولا تفارِق.[35]

وإنّ لحركة ِعين الفعل ماضيا أو مضارعا في العربية أهميةً كبرى في ضبط الدلالة، وتعيين بعض المعاني النحوية والصرفية، والتي تعكس بوضوح خصائص أصيلة تتميّز بها العربيةُ عن لغات العالم. ولقد وفّق الدكتور سيّد علي ميرلوحيفلاورجاني في استقصاء نمط من الأفعال في العربية يتحقّق فيها أثرُ حركة العين في تعديّة الفعل اللازم، وهو العنوان الذي اختاره لمقاله، أورد فيه أكثر من 250 فعلا من الأفعال اللازمة التي تعدّت بتغيير حركة العين؛ وهي على ثلاثة أصناف:

أ - صنف يكون بتغيير حركة عين الفعل الماضي والمضارع، وهو أكثرها ورودا في العربية، نحو: أدُب الرجلُ، يأدُب، أدَبا: راض نفسَه على حميد الأخلاق هذا في اللازم ؛ وفي المتعدّي: أدَب فلانا، يأدِبه، أدْبا: راضه على مكارم الأخلاق. كرُه الشيءُ يكرُه كراهة، قبُح في ذاته بخلاف كرِه الشيءَ يكرَهه كَرْها، أبغضه.

ب - وصنفبكون بتغيير حركة عين الماضي فقط، وهو دون النوع السابق كثرة، وذلك مثل: بهِت الرجلُ يبهَتُ بهَتا: دهِش وتحيّر. والمتعدّي: بهَته يبهَته بهْتا: أدهشه وحيّره. ومن بابها بهِج وبهَجَه، وتعِس تعَسا وتعَسه تعْسا: جحِمت النارُ تجحَم جحَما: تأجّجت واضطربت، وجحَم النارَ جحْما: أجّجها.

ج - وثالثبكون بتغيير حركة عين المضارع فقط، وهو أقلّها استعمالا، ومن شواهده: جدَل الشيءُ، يجدُل جدُولا: صلب. جدَل الحبلَ يجدِله جدْلا: أحكم فتله- تبَّ الشيءُ يتِبُّ تببا: انقطع . تبّ الشيءَ يتُبّ تبّا: قطع . فقَّ الشـيءُ يفِـق فقّـا: انفرج. فقَّ الشيءَ يفُقّه فقّا: فتحه. فرَش النباتُ يفرِش فرْشا: انبسط . فرَش الشيءَ يفرُشه فِراشا: بسطه.

ومن المعلوم أنّ المصدرين القياسيين للفعل الثلاثي المجرّد (فَعْلٌ) للمتعدّي، و(فَعَلٌ) للازم. وكـذلك مصـادر الأفعـال اللازمة التي عدّيت بتغيير بابها، أغلبُها تُغيَّر حركة العين فيها نحو: أبِر = يأبَر= أبَرا، للازم. وبتغيير الحركـة يتعـدّى فتقول: أبَر= يأبُر= أبْرا. وتقول: ثرِدتْ شفته ثرَدا، تشقّقت، وهو من باب اللازم. وثرَد الخبزَ ثرْدا، فتّهُ وهشمه من باب المتعدّي.[36]

وفي الختام، هناك تناسب آخرُ يتجلّى في أثر المخارج في تلوين بعض المعانى؛ أعني بـين مخـارج الحـروف ودلالات بعض الألفاظ؛ فـقد نجد التقارب في المخرج في طائفة من المفردات العربية، يقابله تناسب وتقارب في المعنى قد يبلغ في بعضها حدّ الترادف، حتّى قال الفرّاء: " إذا تقارب الحرفان في المخرج تعاقبا في اللغات".[37] كصوتي البـاء والميم في لازم ولازب والمعنى في المفردة الثانية أقوىوآكد. يقول الفرّاء عن تعاقب هذين الحرفين: "والعرب تقول: ليس هذا بضربة لازب ولازم، يبدلون الباء ميما؛ لتقارب المخارج"[38]. وكصوت الصاد والضّاد والطاء؛ فقد قرئ قوله تعالى: "حصبُ جهنّم" (حطبُ جهنّم)، فالحصَب في لغة اليمن الحطب، وفي لغة العرب، الحصب كلّ ما يرمى به في النّار. وقرئ عن ابن عباّس رضي الله عنهما (حضَبُ جهنّم) والحضب هو كلّ ما أوقدْتَ به النّارَ أو هيّجتها به. ويُلاحَظ فـي هـذه الأصوات الثلاثة (ص، ط، ض)، أنّه إلى جانب اتّحاد المخرج أو قربه، اشتراكُها في صفة التفخيم والإطباق وهو تقويةٌ لعلة التناسب بين معاني مفرداتها. ومثله تبادل الصاد والسين في نطق ورسم بعض الألفاظ في القرآن الكـريم لاتحـاد المخرج. ومن هذه الألفاظ: السراط، وبسطة، والمسيطر..ولبعض العلماء اجتهادات طريفة في توجيهها.

ومن باب هذا التناسب، أنّك تجد في بحث الإبدال اللغوي ظاهرة تناسب المعاني بين ألفاظٍ تقاربت حروفها فـي المخارج والصفات، حتّى كأنّ الألفاظ تبادلت الحروف فيما بينها مع رعاية التـناسب المخرجي، فتحقّق التناسب المعنوي تبعا لذلك؛ فتأمّل كلمة (عَصْرٌ)، ثمّ حاوِلْ إبدالَ كلّ حرف بما يناسبه في المخرج، فالعين حلقية، تناسبها الهمزة. والصاد تناسبها الزاي الأسلية، والراء تناسبها اللام المائعة، وعليه تتغيّر اللفظة وتصبح: (أَزَلٌ)، فاللفظان (عَصْرٌ، وأَزَلٌ) كلاهما يدلّ على الدهر والزمان. وكذلك الأمر بين (عصب وحزم)، تجد أنّ كليهما يدلّ عل الربط والإحكام، لتناسب الحروف في المخارج؛ وقُلْ مثلَ ذلك عن (نكث ونقض ونكص)، و(أفل وغبر)، و(ختل وغدر وختـر)، و(صـهل وزأر وسـعل)، و(العفراء والغبراء). فأنت تلاحظ شبه اتحاد في المخارج ، وتناسبا بين المعاني وتقاربا يكاد يبلغ حدّ الترادف أحيانـا، يشهد بلطافة هذه اللغة.

وهذه الأحكام، وإن كانت تَصْدُقُ على طائفة من الأصول، فإنّها تفتقر إلى مزيـد مـن النظـر، ومزيـد مـن الاستقصاء؛ فمنه الأحكام بلا دليل؛ كقول ابن القيم: "وانظر في تسميتهم الغليظ الجافي بالعتلّ والجَعْظَرِيِّ والجَوَّاظ، كيف تجد هذه الألفاظ تنادي على ما تحتها من المعاني"[39]، ولكن بلا تعليل ولا دليل سوى انطباع المُعجَب. وأحيانا نلاحظ في تعليل الانطباع، وتبرير الحكم، سهوا وغفلة؛ كتعليل ابن القيّم "وانظر تسميتَهم الطويل بالعشنّق، وتأمّـل اقتضـاء هـذه الحروف ومناسبتَها لمعنى الطول، وتسميتهم القصير بالبُحْتُر، وموالاتهم بين ثلاث فتحات في اسم الطويل، وهو العَشَنَّق. وإتيانهم بضمّتين بينهما سكون في البُحْتُر، كيف يقتضي اللفظ الأولُ، انفتاحَ الفم وانفراج آلات النطق وامتـدادها وعـدم ركوب بعضها بعضا. وفي اسم البحتر الأمر بالضدّ "[40]فأنت ترى أنّ الحكم بموالاتهم بين ثلاث فتحات في اسم العَشَنَّق، حكم غير صحيح؛ إذ الحرف الثالث ساكن، وليس مفتوحا كما توهّم، وبالتالي ينخرمُ هذا السندُ.

ولكن لاتخلو هذه الإشارات السريعة والملاحظات الدقيقة من فوائد علمية وأدبيـــة ومنهجيـــة، تلهــم القـــرائح، وتُلهبالهمم، وتستحثّأهل الذكر من ذوي الألباب، وتحملهم على التنقيرعن الكنوز، والبحثفي خبايا لغة القرآن التي لايبليها دهرٌ ولا يتجاوزها عصر.

المصادر والمراجع:

- أحكام التصريف بين الاطّراد والشذوذ، د/ لخضر لعسال، ط1: 2010م، دار أمّ الكتاب، بوقيراط
- أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال كتاب العين، د. أحمد محمد قدور، دار الفكر، ط2، 2003.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل،المعروف بتفسير البيضاوي.
- بدائع التفسير الجامع لتفسير الامام ابن قيم الجوزية، جمع وتوثيق وتخريج، يسري السيد محمد، دار ابن الجــوزي، المملكــة العربية السعودية، ط1، 1993.
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط 2، 2001.
- جدلية الحرف العربي و فزيائية الفكر والمادة، محمد عنبر، دار الفكر، دمشق سوريا، ط 1، 1987.
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، (د.ت- د. ط).
- الوجيز في فقه اللغة لمحمّد الأنطاكي،ط 2، دار الشروق.
- دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين- بيروت لبنان، ط 10، 1983.
- شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبدالله الأزهري، دار إحياء الكتب العربية.
- محاضرات الموسم الثقافي كلية اللغة العربية، مقال: الحركات والسكون في لغة الضاد "دلالتها – أسرارها- مواردها"، عبد الــرحمن محمّد إسماعيل، جامعة أم القرى المملكة العربية السعودية، ط1، 1999.
- مختار الصحاح، الامام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، عني بترتيبه محمد خاطر، دار المعـــارف مصـــر، (د.ت- د.ط).
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية- بيروت- لبنان، 1987.
- معاني القرآن للفراء،أبي زكريا يحيى بن زياد، عالم الكتب- بيروت لبنان، (د.ت-د.ط).
- معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، شركة العاتك للطباعة والنشر، القاهرة، ط 2، 2003.
- مجلّة مجمع اللغة العربية، مقال أثرُ حركة العين في تعديّة الفعل اللازم للدكتور سيّد علي ميرلوحيفلاورجاني. العدد76 أكتوبر 2001م الجزء 4، دمشق.
- مقاييس اللغة، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية إسماعليان نجفى، قم – إيران، (د. ت- د. ط).
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، الإمام جلال الدين السيوطي، دار البحوث العلمية، الكويت، ط 1، 1977.

الهوامش:

1- انظر: الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، (د.ت- د. ط)، ج1، ص72.

2- الخصائص 152/2

3- انظر أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال كتاب العين، د. أحمد محمد قدور، دار الفكر، ط2، 2003، ج1، ص53.

4- أصالة علم الأصوات، د. أحمد محمد قدور، ص54.

5- انظر أصالة علم الأصوات، د. أحمد محمد قدور، ص57.

6- الخصائص 152/2

7- انظر الخصائص 153/2

8- الخصائص، ابن جني، ج2، ص166.

9- مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية إسماعليان نجفى، قم – إيران، (د. ت- د. ط)، مج 2، ص 298.

10- أنوار التنزيل وأسرار التأويل تفسير البيضاوي للآيتين: 5/3 البقرة.

11- أنظر:نفس المصدر.

12- أنظر: دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين- بيروت لبنان، ط 10، 1983، ص157-158.

13- انظر:المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية- بيروت- لبنان، 1987، 47/1.

14-أنظر: الوجيز في فقه اللغة لمحمّد الأنطاكي، ط 2، دار الشروق.ص 295

15- جدلية الحرف العربي وفزيائية الفكر والمادة، محمد عنبر، دار الفكر، دمشق سوريا، ط 1، 1987، ص65

16- أنظر: جدلية الحرف العربي، ص140

17- أنظر: جدلية الحرف العربي، ص256

18- أنظر: جدلية الحرف العربي، ص354–355.

19- انظر بدائع التفسير الجامع لتفسير الامام ابن قيم الجوزية، جمع وتوثيق وتخريج، يسري السيد محمد، دار ابـــن الجـــوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1993، مج 1، ص 95-96.

20- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، الإمام جلال الدين السيوطي، دار البحوث العلمية، الكويت، ط 1، 1977، ج4، ص 95.

21-معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، شركة العاتك للطباعة والنشر، القاهرة، ط 2، 2003، ج 3، ص 312-318.

22- انظر: شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبدالله الأزهري، دار إحياء الكتب العربية، ج1، ص59.

23- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيـــع، عمـــان الأردن، ط 2، 2001، ص114.

24- الخصائص، ابن جني، ج1، ص 75.

25- الخصائص، ج1، ص78.

26- الخصائص، ابن جني، ج1، ص65-66.

27- مختار الصحاح، الامام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، عني بترتيبه محمد خاطر، دار المعارف مصر، (د.ت-د.ط)، ص62.

28- بدائع التفسير، ابن قيم الجوزية، مج1، ص490-491.

29- بدائع التفسير، مج1، ص491.

30-محاضرات الموسم الثقافي كلية اللغة العربية، مقال: الحركات والسكون في لغة الضاد "دلالتها – أسرارها- مواردها"، عبد الرحمن محمّد إسماعيل، جامعة أم القرى المملكة العربية السعودية، ط1، 1999، ص76.

31- نفسه، ص77.

32- محاضرات الموسم الثقافي كلية اللغة العربية، ص121.

33- نفسه، ص121.

34- نفسه، ص121.

35- انظر الخصائص، ج2، ص225. وانظر: محاضرات الموسم الثقافي كلية اللغة العربية، الحركات والسكون في لغة الضاد "دلالتها – أسرارها- مواردها"، عبد الرحمن محمّد إسماعيل، ص146.

36- انظر مقال أثرُ حركة العين في تعديّة الفعل اللازم للدكتور سيّد علي ميرلوحيفلاورجاني مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق. العدد76 أكتوبر 2001م الجزء 4 من صفحة 807 إلى 844

37-أحكام التصريف أحكام التصريف بين الاطّراد والشذوذ، د/ لخضر لعسال، ط1: 2010م، دار أمّ الكتاب، بوقيراط، ص309/308

38-معاني القرآن، 384/2

39- بدائع التفسير، ابن قيم الجوزية، مج1، ص489.

40- المصدر السابق.